

من صحابة الرسول

المجموعة الثانية

١٣

خطاب  
بن الأرقم

نانيس محمد عزت

## خَبَابُ بْنُ الْأَرْتِ

رَجَعَ إِسْمَاعِيلُ مِنَ النَّادِي مُرْهَقًا ، وَارْتَمَى عَلَى  
مَقْعَدٍ وَثِيرٍ مُرِيحٍ ، وَقَالَ لَوَالِدِهِ :

— قَدْ تَعِبْتُ ، فَإِنَّ التَّدْرِيْبَ الْيَوْمَ كَانَ شَاقًّا .

ابْتَسَمَ وَالِدُهُ وَقَالَ : اسْتِذْكَارُ الدَّرُوسِ شَاقٌّ مُمِلٌّ ،  
وَتَدْرِيبَاتُ السَّبَّاحَةِ شَاقَّةٌ مُرْهِقَةٌ ، فَمَا هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي  
تَرَاهُ سَهْلًا مُمْتِعًا ؟ الْجُلُوسُ عَلَى مَقْعَدٍ مُرِيحٍ ،  
وَمُشَاهَدَةُ التَّلِفِيزِيُونِ مِثْلَ الْعَجَائِزِ ؟

قَالَ إِسْمَاعِيلُ : لَمْ أَقْصِدْ ذَلِكَ يَا أَبِي ، فَأَنَا أَحَبُّ  
السَّبَّاحَةِ ، وَلَكِنْ مُدْرَبُ السَّبَّاحَةِ أَهْلَكُنَا مِنْ ائْتَعَبَ ،  
فَقَدْ فَرَضَ عَلَيْنَا أَنْ نَقْطَعَ حَمَامَ السَّبَّاحَةِ ذَهَابًا وَإِيَابًا  
أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ مَرَّةً .

قَالَ وَالِدُهُ : لَا تَنْسَ يَا إِسْمَاعِيلُ أَنَّ بُطُولَةَ  
الْجُمْهُورِيَّةِ عَلَى الْأَبْوَابِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ فَرِيقُ  
السَّابَّاحَةِ عَلَى أَتَمِّ اسْتِعْدَادٍ لَهَا . أَيْنَ الْعَزِيمَةُ وَالْمُشَابَرَةُ  
وَقُوَّةُ التَّحْمُلِ ؟ فَأَنْتَ تَسْتَصْعِبُ السَّابَّاحَةَ فِي الْمِيَاهِ  
الْبَارِدَةِ الْمُنْعِشَةِ ، فِي هَذَا الْحَرِّ اللَّافِحِ ، وَتَعْجِزُ عَنْ  
تَحْمُلِهَا ، فَمَا بِأَلْكَ بِمَنْ كُوِيَ بِالنِّيرانِ ، وَبِالْحَدِيدِ  
الْمُحْمَى ، وَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ فَوْقَ رِمَالِ الصَّحَرَاءِ  
الْمُلْتَهَبَةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ صَبَرَ وَتَحَمَّلَ ، وَلَمْ يُظْهِرِ الْأَلَمَ  
لَأَعْدَانِهِ .

تَعَجَّبَ إِسْمَاعِيلُ وَقَالَ : أَحَقُّ هَذَا ؟ وَمَنْ كَانَ ذَلِكَ ؟  
تَدَخَّلْتَ وَالِدَةُ إِسْمَاعِيلَ فِي الْحَدِيثِ فَقَالَتْ : إِنَّهُ لَمْ  
يَكُنْ شَخْصاً وَاحِداً يَا إِسْمَاعِيلُ ، بَلِ الْعَشَرَاتِ  
وَالْعَشَرَاتِ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَالْعَبِيدِ وَالضُّعَفَاءِ ، الَّذِينَ آمَنُوا  
بِدَعْوَةِ مُحَمَّدٍ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَلَمْ يَكُنْ

لديهم القوة أو الملجأ الذي يحميهم من بطش الكفار .  
ولكن يظهر أن والدك يقصد شخصاً بعينه ، فمن يا  
تُرى الذي يقصده ؟

قال والده : نعم ، فانا أقصد الخَبَابَ بنَ الأَرْتِ .  
قالت والدته : حقاً ، فهو مثالٌ فريدٌ في الفداء  
والعطاء .

قال إسماعيل : ولكنى لا أعرفُ قصته ، فهل  
تحكيها لى يا أبى ؟

قال والده : نعم بكل سرور ، فحياة الخَبَابِ  
الأَرْتِ قدوةٌ يُحتذى بها . فقد عاش الخَبَابُ حياةَ الرِّقِّ  
والعبودية منذ سنواته الأولى ، حين أغار الأعداء على  
قبيلته بنى تميم ، وأخذوه بين السبايا ، وباعوه فى  
سوق الرقيق بمكة - وكان لسوء حظهِ أن اشترته من  
السوق أم أنمار الخزاعية . اشترته لتدفعه إلى العمل

وَتَكْسِبَ مِنْ وِرَائِهِ . فَدَفَعَتْ بِهِ إِلَى أَحَدِ الْحَدَّادِينَ  
لِيَتَعَلَّمَ مِنْهُ صِنَاعَةَ السُّيُوفِ ، وَهِيَ تِجَارَةٌ رَائِجَةٌ ، لَمْ  
يَكُنْ يَسْتَغْنِي عَنْهَا الرِّجَالُ أَوْ الشَّبَابُ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ  
لِلصَّيْدِ أَوْ لِلْقِتَالِ ، فَهِيَ حِرْفَةٌ تُدِرُّ عَلَى صَاحِبِهَا الْمَالَ  
الْوَفِيرَ .

وَحِينَ بَلَغَ خَبَابُ سِنِّ الشَّبَابِ ، وَاشْتَدَّ عَوْدُهُ ،  
وَاتَّقَنَ صِنَاعَةَ السُّيُوفِ ، اسْتَأْجَرَتْ لَهُ أُمُّ أَنْمَارٍ ذُكَّانًا  
يَعْمَلُ فِيهِ ، وَكَانَتْ تُرَهِّقُهُ دَائِمًا بِطَلَبِ الدَّرَاهِمِ .

وَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى شِرَاءِ السُّيُوفِ مِنَ الْخَبَابِ ،  
وَذَلِكَ لِمَهَارَتِهِ فِي صُنْعِهَا ، وَلِمَا كَانَ يَتَحَلَّى بِهِ مِنْ  
أَمَانَةٍ وَصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ .

وَزَلَّ خَبَابٌ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ ، يَقِفُ أَمَامَ الْكُورِ  
يُشْعِلُ النَّارَ بِنَفْسِهِ ، ثُمَّ يُدْخِلُ الْحَدِيدَ فِي النَّارِ فَيَنْصَهَرُ

وَيُصْبِحُ عَجِينَةً لِّئَنۢ فِى يَدِهِ ، يُشَكِّلُهَا كَيْفَ يَشَاءُ ،  
مِدَّةَ سَنَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ .

إِلَى أَنْ سَطَعَ النُّورُ فِى مَكَّةَ فَجَاءَ ، وَرَاحَ النَّاسُ  
يَتَنَاقَلُونَ خَبَرَ الرِّسَالَةِ الَّتِى جَاءَ بِهَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ  
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَشْرَقَ فُؤَادُ الْخَبَابِ ،  
وَانْشَرَحَ صَدْرُهُ لِمَبَادِئِ الدِّينِ الْجَدِيدِ السَّمْحَةِ ، فَأَسْرَعَ  
إِلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُعْلِنُ إِسْلَامَهُ .

سَأَلَ إِسْمَاعِيلُ : أَكَانَ خَبَابٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَائِلِ ؟  
قَالَتْ وَالِدَةُ إِسْمَاعِيلَ : نَعَمْ ، بَلْ كَانَ مِنَ الْعَشَرَةِ  
الْأَوَائِلِ الَّذِينَ دَخَلُوا فِى الْإِسْلَامِ .

وَقِيلَ إِنَّ تَرْتِيبَهُ فِيهِمْ هُوَ السَّادِسُ ، إِذْ أَسْلَمَ قَبْلَ أَنْ  
يَتَّخِذَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابَهُ ،  
دَارَ الْأَرْقَمِ مَقَرًّا لَهُمْ .

قَالَ وَاللَّهِ : صَدَقْتُ ، وَلَمْ يَكْتَفِ الْخَبَابُ بِإِسْلَامِهِ ،  
 بَلْ أَعْلَنَهُ وَأَظْهَرَهُ عَلَى الْمَلَأَ ، بِرَغَمِ عِلْمِهِ بِمَا سَيَلَاقِيهِ  
 مِنْ أَشَدِّ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالتَّنْكِيلِ ، فَلَمْ يَكُنْ يَشْغَلُ بَالَهُ  
 عِنْدِيذِهِ إِلَّا النَّوْرُ الَّذِي مَلَأَ قَلْبَهُ . وَعِلِمْتُ أُمُّ أَعْمَارٍ  
 بِإِسْلَامِهِ ، فَاسْتَشَاطَتْ غَضَبًا ، وَوَاجَهَتْهُ هِيَ وَأَخُوهَا  
 « سَبَّاحُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى » . وَبَعْضُ فِتْيَانِ خُرَاعَةَ .  
 وَسَأَلَهُ سَبَّاحُ :

— يُشَاقُّ أَنَّكَ صَبَاتٌ وَتَبَعَ غُلَامٌ بَنَى هَاشِمٍ .  
 فَرَدَّ عَلَيْهِ خَبَابٌ فِي هُدُوءٍ : مَا صَبَاتٌ وَإِنَّمَا آمَنْتُ  
 بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَتَرَكْتُ عِبَادَةَ أَصْنَامِكُمْ ،  
 وَشَهِدْتُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ .

وَكَانَتْ كَلِمَاتُ خَبَابٍ بِمَثَابَةِ الضَّوِّ الْأَخْضَرِ لِسَبَّاحٍ  
 وَمِنْ مَعَهُ ، فَانْهَالُوا عَلَى خَبَابٍ ضَرْبًا وَرَكْلًا ، وَقَذَفُوهُ

بما وَصَلت إِلَيْهِ أَيْدِيهِمْ مِنْ مَطَارِقَ وَقِطْعِ الْحَدِيدِ ، حَتَّى هَوَى عَلَى الْأَرْضِ ، وَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ .

وَهَكَذَا ضَرَبَ خَبَابٌ لَنَا أَفْضَلَ مِثَالٍ لِلصَّبْرِ وَالْجَلْدِ وَقُوَّةِ التَّحْمُلِ ، وَصَلَابَةِ الْعَزِيمَةِ وَصَدْقِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ .

فَقَدْ تَفَنَّنَتْ أُمُّ أَنْمَارٍ وَأَخْوَهَا سَبَاعٌ فِي تَعْذِيبِ الْخَبَابِ ، فَكَوَّوهَ بِأَسْيَاحِ الْحَدِيدِ الْمُحْمَاةِ ، وَأَلْبَسُوهُ دُرُوعَ الْحَدِيدِ ، وَصَهَرُوهُ فِي حَرَارَةِ الشَّمْسِ الْحَامِيَةِ .

وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ حَمَّوْا الْحِجَارَةَ بِالنَّارِ ، وَالصَّقَوْهَا بِظَهْرِ الْعَارِي حَتَّى ذَهَبَ لَحْمُهُ .

قَالَ إِسْمَاعِيلُ مُشْمِزًا : كَفَى يَا أَبَى أَرْجُوكَ . إِنَّ مَا تَصِفُهُ مِنْ أَلْوَانِ الْعَذَابِ لَا يُحْتَمَلُ . فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ إِنْسَانٌ أَنْ يَتَحَمَّلَ كُلَّ هَذَا الْعَذَابِ ؟



قال والدّه : لقد تحمّله الخبّابُ بصبرٍ وجلد .  
 فطالما حاولَ جلاّدوه انتزاعَ كَلِمَةٍ منه تنصّرُ آهتَهُمْ ،  
 حتّى إذا اشتدَّ به العذابُ سألوهُ : ماذا تقولُ فى مُحَمَّد ؟  
 أجاب : هو عبدُ اللَّهِ ورَسُولُهُ ، جاءنا بدينِ الهدى  
 والحق ليخرجنا من الظلماتِ إلى النور .

فيسْتَمِرُّونَ فى تعذيبه ويعاودون سؤاله : وماذا  
 تقولُ فى اللاتِ والغزى ؟

كان ردّه : صَمَّانٍ أَصَمَّانٍ أَبْكَمَّانٍ ، لا يَضُرَّانِ ولا  
 يَنْفَعانِ .

فلم يزدْهُمْ رَدُّهُ إِلَّا غَضَبًا ، واستَمَرُّوا فى تعذيبه بما  
 لا طاقةَ للبشر أن يحتمّله .

ولم تكن أُمُّ أُمِّارٍ أَفْضَلَ من أخيها سَبَّاعٍ ، فكانت  
 تحمى قِطْعَ الحديدِ فى الموقِدِ الذى يعملُ عليه خَبَّابٌ ،  
 وتضعُها على رأسه حتّى يُغْمَى عليه .

فإذا رآه الرسول - صلى الله عليه وسلم - كذلك ،  
 أسِفَ لحاله ، فلم يكن يملك أن يمنع عنه العذاب ،  
 ورفع كفيه إلى السماء ودعا له : اللهم انصر خبابا .  
 وشاء الله فلم تمض إلا بضعة أيام ، حتى أصيبت أم  
 أنمار بسُعار ، جعلها تعوى مثل الكلاب ، وقيل لها إنه  
 لا علاج لها إلا أن يكوى رأسها بالنار .

وهكذا شربت من نفس الكأس التي طالما سقتها  
 لخباب ، وقاسى رأسها آلام الحديد المحمى ، إذا  
 أصبحت وإذا أمست .

قال إسماعيل : أحسن ! إنها تستحق ذلك وأكثر ، فبأن  
 الله يمهّل ولا يمهّل ، ولعل النار تذيب عقلها المتحجر .  
 وماذا عن أخيها سباع ؟ ماذا كان من أمره ؟

قال والده : أخذ حمزة بن عبد المطلب بشأ خباب  
 من سباع ، فعاجله بضربة قاتلة ، قضت عليه يوم أحد .

قال إسماعيل : حمدا لله ، فقد نال كلُّ منهما ما يستحقُّ من عقاب .

قال والده : ورغم ما لقيه خبابٌ من عذاب ، كان دائماً حريصاً على حضور مجالس الرسول — صلى الله عليه وسلم — وحفظ ما ينزل عليه من القرآن أولاً بأول ، ودراسة كلِّ ما يتعلق بالدين . كما كان حريصاً على نشر الدين وتعليم إخوانه من المستضعفين ، الذين كانوا يكتُمون إسلامهم خوفاً من بطش قريش ، فكان يذهب إليهم في بيوتهم ويعلمهم القرآن .. أتعلم يا إسماعيل أن كان لخباب الفضل في إسلام الفاروقِ عمر بن الخطاب ؟

قال إسماعيل : كيف ذلك يا أبى ؟ كيف لذلك العبد الضعيف أن يصل لعمر بقوته وجبروته ؟ أو لم يكفه ما لقيه من عذاب ؟

ابْتَسَمَ وَالِدُهُ وَقَالَ : إِنَّ لَذَلِكَ قِصَّةً . فَبَيْنَمَا كَانَ الْحَبَابُ ذَاتَ مَرَّةٍ عِنْدَ فَاطِمَةَ أُخْتِ عُمَرَ ، إِذْ حَضَرَ عُمَرُ مُتَقَلِّدًا سَيْفَهُ ، وَهُوَ يَنْوِي الشَّرَّ بِأُخْتِهِ وَزَوْجِهَا ، حَيْثُ سَمِعَ أَنَّهُمَا تَرَكََا دِينَهُمَا وَاعْتَنَقَا الْإِسْلَامَ . فَعِنْدَمَا كَانَ بِالْبَابِ ، سَمِعَ صَوْتَ الْحَبَابِ وَهُوَ يَتْلُو الْقُرْآنَ ، فَتَأَثَّرَ بِعُذُوبَةِ صَوْتِهِ ، وَعَظَمَةِ مَا سَمِعَ .

وَمَا أَنْ خَطَا دَاخِلَ الْبَيْتِ حَتَّى اخْتَفَى الْحَبَابُ . وَحَاوَلَ عُمَرُ أَنْ يَأْخُذَ الصَّحِيفَةَ مِنْ يَدِ أُخْتِهِ ، وَلَكِنَّهَا مَنَعَتْهُ وَقَالَتْ : يَا أَخِي إِنَّكَ نَجَسٌ عَلَى شَرِّكَكَ ، وَهَذِهِ الصَّحِيفَةُ لَا يَمَسُّهَا إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ .

فَاغْتَسَلَ عُمَرُ وَتَطَهَّرَ ، وَمَا أَنْ قَرَأَ سُورَةَ طه حَتَّى لَانَتْ سَرِيرَتُهُ ، وَقَالَ : دَلُونِي عَلَى مُحَمَّدٍ .

هَنَا ظَهَرَ الْحَبَابُ وَقَالَ : وَاللَّهِ يَا عُمَرُ ، إِنِّي لَا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ خَصَّكَ بِدَعْوَةِ نَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وسَلَّمَ - فقد سَمِعْتُهُ أَمْسِ يَقُولُ : اللَّهُمَّ أَيْدِ الْإِسْلَامَ  
بِأَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ ، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ . وقد  
كَانَ إِسْلَامُ عُمَرَ مَكْسَبًا عَظِيمًا لِلْإِسْلَامِ ، لَا يَسْتَطِيعُ  
أَحَدٌ أَنْ يُنْكِرَهُ .

\* \* \*

وهاجَرَ خَبَّابٌ إِلَى الْمَدِينَةِ مَعَ أَقْرَانِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ  
الْمُسْتَضْعَفِينَ . وَفِي الْمَدِينَةِ ذَاقُوا طَعْمَ الرَّاحَةِ لِأَوَّلِ  
مَرَّةٍ ، مُنْذُ دَهْرٍ طَوِيلٍ .

وشَهِدَ خَبَّابٌ جَمِيعَ الْغَزَوَاتِ مَعَ الرَّسُولِ - صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَكَانَ نَارًا أَهْبَتْ مِنْ أَذَاقُوهُ لَهْيَيْهَا ،  
وَكَانَ سَوَاطِئَ سُلْطَتِهِ اللَّهُ عَلَى مَنْ أَذَاقُوهُ ضَرْبَ السَّيَاطِ .  
وَمَدَّ اللَّهُ فِي عُمَرِ خَبَّابٍ ، فَعَاصَرَ جَمِيعَ الْخُلَفَاءِ  
الرَّاشِدِينَ ، وَعَاشَرَ فِي رِعَايَتِهِمْ ، جَلِيلَ الْقَدْرِ نَابَةَ الذِّكْرِ .

هنا قالت والدّة إسماعيلَ لوالده : لقد قصصت عليه  
جانب الفداء في حياة الخَبَّاب ، فلا تنسَ أن تُقَصَّ  
عليه جانبَ العطاء والجود .

قال والدّه : وكيف نَنسى أنَّ خَبَّاباً اتَّصف بأنّه  
أُسْطُورَةُ فِدَاءٍ وَعَطَاءٍ ، فَاسْمَعْ يَا وَلَدِي !

اغْتَنَى خَبَّابٌ فِي الشَّطْرِ الْأَخِيرِ مِنْ حَيَاتِهِ بَعْدَ فَقْرٍ ،  
وَمَلَكَ مَا لَمْ يَكُنْ يَحْلُمُ بِهِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، فَانْظُرَا  
مَاذَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ . وَضَعَ كُلَّ مَا يَمْلِكُ مِنْ دَرَاهِمٍ  
وَدَنَانِيرَ فِي مَوْضِعٍ مِنْ بَيْتِهِ يَعْرِفُهُ الْمُحْتَاجُونَ ، كَمَا  
يَعْرِفُهُ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ ، فَكَانُوا يَأْتُونَ إِلَى دَارِهِ  
وَيَأْخُذُونَ مَا يُرِيدُونَ ، دُونَ سُؤَالٍ أَوْ اسْتِئْذَانٍ .

قَالَ إِسْمَاعِيلُ مُنْدهِشاً ؟ أَيْعَقِلُ هَذَا ؟

قَالَ وَالِدُهُ : وَمَعَ ذَلِكَ نَجَدُهُ يَوْمَ وَفَاتِهِ ، خَائِفاً أَنْ يَكُونَ  
اللَّهُ قَدْ عَجَّلَ لَهُ بَثْوَابِهِ فِي الدُّنْيَا ، عَنْ ثَوَابِهِ فِي الْآخِرَةِ .

وَلَقِيَ خَبَابٌ وَجَهَ رَبَّهُ فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ وَالثَّلَاثِينَ  
 لِلْهَجْرَةِ . وَحِينَ مَرَّ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ بِقَبْرِهِ ، دَعَا  
 قَائِلًا : رَحِمَ اللَّهُ خَبَابًا ، أَسْلَمَ رَاغِبًا ، وَهَاجَرَ طَانِعًا ،  
 وَعَاشَ مُجَاهِدًا ، وَابْتُلِيَ فِي جِسْمِهِ أَهْوَالًا ، وَلَنْ يُضِيعَ  
 اللَّهُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا .

قَالَ إِسْمَاعِيلُ : إِنَّهُ مِثَالٌ حَيٌّ لِقُوَّةِ التَّحْمُلِ  
 وَالمُثَابَرَةِ . فَيَا لِلْفِدَاءِ وَيَا لِلتَّضَحِّيَةِ !

قَالَتْ وَالِدَتُهُ : لَيْسَ وَحْدَهُ يَا وَلَدِي ، بَلْ مَعَهُ  
 الْعَشْرَاتُ وَالْمِنَاتُ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ تَحْمِلُوا الذُّلَّ  
 وَالْهَوَانَ ، حَتَّى وَصَلَ بِهِمُ الْإِسْلَامُ إِلَى بَرِّ الْأَمَانِ .  
 فَلَوْلَا صَبْرُهُمْ وَجَلْدُهُمْ وَتَحْمُلُهُمُ الْمَشَاقَ ، مَا وَصَلُوا  
 إِلَى مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ فِي خِدْمَةِ الْإِسْلَامِ .

قَالَ إِسْمَاعِيلُ : شُكْرًا لَخَبَابٍ ، وَلِمَنْ مَعَهُ مِنَ  
 الصَّحَابَةِ .